رياض عصمت

« بيروت ٧٥ »
بين الذكرى والحدث والحلم

تبدأ الروايـة برحلة . نخال انها رحلة من الصحراء الحارة المقفره الى الفردوس المفقود ، فدمشق مدينة مغلقة محافظـة تدفـن الاحلام ، وبيروت هي الحلم اللامع مزدهي الالوان .

هكذا يتجه بطلا غادة السمان (فرح) و (ياسمينة) تجمعهمـا الصدفـة في سيارة عمومية ، كل غارق في همومه واحلامه ، كل هارب من الفقر والرتابة ، كل منهمـا وحيد لا يرى الامل الا في بيروت المشعة بالاضواء والمجد والمال .

لكن السيارة التي تقلهمـا تشبه سيارة دفن الموتى ، وتحـمل مقعدهـا الخلفي ثلاث نساء متشحات بالسواد ككورس وثني قديم يرافقن رحلة فرح وياسمينه بندب مستمر أليم ، بينما يغرق السائق الاخرس في صمت مبهم كشخصيـة اسطورية غامضة تقـود العربة في طريـق مسحورة وهدفهـا الجحيم .

وما ان تصل العربة منتصف الطريق بين دمشق وبيروت حتى يختفي كورس النساء النادبات من عالم غادة السمان ليترك الفرصة لبقيـه الشخصيـات بالتجمع صدفـة عبر الطريق في السيارة المتجهـة الـى مدينـة الاضواء الثلاثـة .

لكن هذيـن الانسانين ـ الرمزين (ويبدأ الرمز من اسميهمـا) سرعـان مـا يفقدان في بيروت كل مـا ادخراه من احلام ومـطامح ، فالمجد فشرة زائفـة تبنيهـا حولهمـا طبقـة فاسدة مستغلة على حساب انسانيتهمـا . فها هو فرح يبيع نفسه للسيد (نيشان) صاحب كثير من المؤسسات المستغلـة ذات الاسماء الكبيرة ، وها هو نيشان يصنع منـه « مطرب الرجولة » ويتاجـر به في وسائل الاعلام والمجتمعات «الراقية» كمـا يتاجر بدميـة ، وها هـو يجعل منه صبيه الخاص الفحل ، لانه فقـد منذ زمـن قدرته على معاشرة النساء . وهكذا يسقط فرح فـي دوامة الزيف ، يحاول التخلص دون جدوى ، وما يلبث شيئا فشيئـا ان ينكر نفسه ، وعندمـا يقف امـام الميكروفون في حفلة كبيرة يجـد نفسه يعوي ويعوي فقط . وخلال كوابيس متلاحقة نغوص مع فـرح في عالم الجنون . انه الخلاص من الهوة الشيطانية التي ابتلعت حتى قدرته على الحب والفرح ، وابقت اسم « الرجولـة » عليه كخيال المآتة، يفزع الطيور ويخدعها رغم انه من القش . لذلك ينتزع فرح لافتة « مستشفى المجانين » وهو ينطلق منه هاربـا ليعلقهـا على مدخل بيروت التـي تطل مع الفجر « مثل احشاء وحش جهنمي يتاهب للانقضاض ».

اما ياسمينة فتمنح نفسهـا بكل عفوية وصدق للثري الشاب نمر السكيني ، وترفل في الرفاهيـة والسعادة والحب . ولكن نمرا يملها ، ويرفض الزواج منهـا ، فهـو محافظ لا يتزوج من تمنحه نفسها قبـل الزواج ، وهو ابن زعيم سياسي كبير لا يتزوج بنتا فقيرة لا سند لها ، بل يعتمد في زواجه على دعم ثروة والده ومركزه في المجتمع والدولة . وتحاول ياسمينة ان تفسر نفسها على قبول الوضع الجديد : وضـع العشيقة المرغوبة حينا ، والمرفوضة حينا اخر ، المشتهاة عندمـا تكون معه وحدها ، والمنكرة عندمـا يكونان امام المجتمع . ولكـن تشبث ياسمينة بنمر بدافع الحب الصادق والرغبة الجسدية ، لا يمنعه عندما يفر الزواج بابنة احد الاثرياء دون حب ان يأخذهـا بيده ليهديهـا الى (نيشان) كمـا تهدى عنزة لقيد جزارها ، على ان يستعيدهـا كعشيقة متى استقرت اموره .وتثور كرامة ياسمينة التي ما زالت تملك في صدرها كثيرا من المشاعر الصافية،وذكرياتها كمعلمة عند الراهبات فـي دمشق ، فتقرر اللجوء الى اخيهـا في بيروت الذي كانت تنفق عليه من اموال السكيني . ولكن الاخ عندمـا يعلم ان مورد النقود قد انقطع يثور للشرف الذي سكت عليه طويـلا فيذبحهـا . وما يلبث نفـوذ السكيني ان يخدر كل شيء،لتصبح الجريمة واحدة من عشرات جرائم « الشرف » التي تنشر في الصحف كل يوم ، وتسقط ضحيتهـا زهرات بريئـات بينمـا يلهـو المجرم الحقيقي محاطا بكل مظاهر الاحتـرام والوقـار والقانـون .

(طعـان) الرجل الثالث يهرب من مصير اخر خططه له الغدر الفاشم،والجهل المطبق على عشيرة بدائية . لقد تخرج مؤخرا كصيدلي، لكنه مطالب فجاة بالهرب من رجل لا يعرفه يسعى لقتله انتقامـا لدم قريب مقتول في صراع طائش قبلي بين عشيرتين . وها هو طعـان فـي ذعره المتصاعـد يرتكب جريمة قتل انسان بريء لا يعرفه اذ يظـن انـه الخصم الذي يلاحقه ، وينتهي مستقبله بيـن جدران السجون وعذاب الضميـر .

و (ابو الملا) الرجل الفقير الذي يعمل حارسا للاثار ليعيـل اسرة كبيرة تعيش في حجرة واحدة من التنك ، يهجس بسرقة التمثال ذي العينين الذهبيتين . وعندمـا يقـدم على سرقته اخيـرا تطـارده الكوابيس ويعذبه ضميره ،فيتخيل التمثال وقد دبت فيه الروح واصبح عملاقا هائلا يضغط على عنقه بيديه ليخنقه . وعندمـا تأتـي زوجتـه واولاده يجدونه ميتا بالسكتة القلبية . « قتله الصبر على الفقـر »، يقول الملا ولده ، عامل اللحام بالاوكسجين ، ويصوب لهبا من النار من جهاز اللحام الى السقف ليفتح فيه ثقبا . « وانهار جالسا ويـداه

مسدلتان كأنه لا يعرف ماذا يفعل بهما . وتعلقت نظراتـــه بالثقب المفتوح على السماء . كانت السماء سقفا صلدا من السواد الدامس . ولم تلتمع في الثقب نجمة. وبدأ المطر يدلف عبره ، ونقاطه تسقط فوق جثة الاب .. بالضبط فوق القلب تماما ، نقطة نقطة كنزف الليل ».

اما (بو مصطفى)صياد السمك ورفاقه فكل سيء ضدهم ،الطقس، والحكومة ، والمتنفذون المسيطرون على تجارة السمك من العائلات الثرية. وعبثا يحاول الاستمرار في كفاحه ضد الجوع والفاقة ، حتى يلقي بنفسه أخيرا في اليم وقد ربط نفسه بحزمة ديناميت مشتعلة . لقد جعل نفسه انطعم الاخير لنيل المصباح السحري الذي قضى حياته الطويلة يفتش عنه بين أكوام السمك ولا يجده . ان كل المعجزة الذي يستطيع تحقيقها هي ان يموت برجولة .

ومصطفى ، ابنه الشاب ، الذي يسرقه البحر وهم اللقمة من طموح دراسته ، ومن رؤاه الشاعرية ، يكتشف عبر مرارة الواقع وقسوة حياة الصيادين ، ماذا عليه أن يفعل . انه يكتب ويكتب على ورقة تبللها مياه الامطار الهاطلة بغزارة في « قهوة الليل » المطلة على البحر كل مطالب الصيادين . الريح تعصف ، والمطر لا يتوقف عن النزيف ، والجوع ثائر ، ومصطفى الشاب يكتب ويكتب عن حياة بلا ضمانات وعن التجار المستغلين ،عن المحتكرين ، وعن عدم وجود برادات او تعاونيات . وفي ذات ليلة يقرر أخيرا الطريق .. فيجه الى بيت احد الرفاق للانخراط في العمل السياسي السري مع رفاقه الكادحين لرفع الظلم عن كاهل طبقتهم .

* * *

غادة السمان تخطو بثقة في عالم القصة والرواية ، وغربتها الوجودية اوصلتها الى الحل الصحيح لهذا الطريق الذي قاد غيرها الى الترف والذاتية. لقد عثرت وسط متاهة الحرية على الدرب الوحيد في القصة القصيرة شخصيات متعددة الاهواء والافكار والطبقات ، وان ترسم بينها علاقات مقنعة دون افتعال تجعلها في موضع مشرف محلل وناقد . لا شك انها احيانا قليلة تتدخل في حياة شخصياتها اكثر مما يجب او قبل اللحظة المناسبة ، ولا شك انها احيانا تقسرها على موقف معين ، ولكنها غالبا ما تحتفظ تجاهها بموضوعية الواقع الاجتماعي والانساني العام . مصطفى مثلا كان لا بد أن يلتزم بحزب مناضل ، فهكذا يحتم تطور شخصيته والظروف التي مر بها ، لكن غادة تقسره بدافع مثالي ان يفعل ذلك في لحظة مفاجئة في منتصف ليل بارد ، وهذا ما يقلل اقناعنا بموقفه ويذكرنا بان هناك لاعبة تحركه كدمية . وأحو ياسمينه يمر مرورا عابرا ، ويبدو فعلـه المسبق واللاحق دون تحليل دوافعه ووضعه الاجتماعي ، وها هو يمر بمجموعة من التقلبات لا يفسرها سوى الرسائل والخبرات المتراكمة من خلال عمل غادة الصحفي . ايضا التحول بنم هنا بقفزة ولا ينمو نموا .

ان غادة لا تعرف (فرح) أو (ياسمينة) وانما تخلقهما ،وتضعهما في اتون مجتمع مستغل زائف يقضي على انسانية الانسان ويجعل منه سلعة تباع وتشترى برخص . وهي تجمع من خبراتها ورؤيتها العامة كثيرا من النماذج الفقيرة ، والضائعة دون حل ، غير انها لا تستطيع ان تتعمق فيها كثيرا . لكن غادة ترسم ببراعة لا تجارى الشخصيات المستغلة مثل (نمر السكيني) و (نيشان) ، فهي تعرفها عن كثب، وتفضحها عن معرفة . ان موقفها السياسي والانساني واضح ، فهي ترفض تلك الطبقة المستغلة الزائفة وتتعاطف مع ردة فعل المضطهدين، وتوثي للضحايا الناتهة وراء الحلم البراق .. حلم المجد والشهرة والمال .. ذلك الحلم الذي يفقدها انسانيتها .

والمعمار الفني لرواية غادة السمان الاولى معمار دقيق . فهي ترسم جميع الشخصيات ، وبأكبر قدر تستطيعه من الموضوعية دون التخلي عن موقفها الفكري ككاتبة . وجهة النظر اذن تتعدد لديها تعددا كبيرا . وهذا امر صعب ، يفترض تراء اسلوبيا لـه نفس صفة التنوع،ويفترض معرفة دقيقة متوازنة بجميع شخصياتها على حد سواء. وغادة قد حققت الشرطين الى حد مقنع ومشرف وقدمت عملا روائيا غنيا باسلوبه ، وفكره ، وصدقه .

انها تعتمد على عديد جدا من الرموز المرهفة ، فتدعم عالمها الواقعي وشخصياتها الحية بصيغ فنية ، تمنحها ابعادا جمالية غنية . رموزها ليست عميقة ولا صعبة ، انما هي اشبه ما تكون بالاستعارات والصور .

تبدأ الرموز من الاسماء ، ففرح وياسمينة يذكران بدمشق كما تحلم بها غادة . انهما بشكل عام يمثلان البراءة والطهر والاحلام الحلوة . و « فندق العسل » البائس الذي يأوي اليه فرح في اولى ايامه ببيروت بعيد عن كل ما في العسل من حلاوة المذاق ، وغارق في التعاسة والفقر والعدم . و (نيشان) لقب يسخر من كل الاوسمة التي علقتها المؤسسات المستغلة . على صدر مثل ذلك الرجل . ونمر السكيني يحمل كل شراسة النمور ، وقسوة السكين . وابو خطيبته الثري الكبير يدعى (فاضل) تماما مثل (نيشان) ، وكلاهما بعيد عن ان يستحق لقب الفضيلة او وسام التقدير من المجتمع .

اما الفقراء ، اولئك الذين تتعاطف غادة ونصل باحدهم الى نسيجة الالتزام الثوري ، فانها تدعهم واقعيين ، بسطاء ، بلا رموز . ولكنها بذلك ــ كما نرى ــ تترك ثغرة غير متكاملة في بنائها الفني ، فمن يبدأ اسلوبا ما يجب ان يصممه على العمل ككل ليكسبه وحدة الرؤيا .

وتتطور الرموز الصغيرة عند غادة ، فالسمك في اكيـــاســـه النايلون يطالع عيني فرح كلما عاد الى فندقه حاملا احلامه المزيفة. ان البشر في بيروت ــ وفي كل المجتمعات الاستهلاكيـــة العربية والاجنبية ــ مثل السمك تماما . وفرح يلمح ايضا ما ينذر بشـــكل غير مباشر بمستقبله الاسود . انه ذلك القراد الذي يلعب قردا . وهنا يأخذ الرمز بعدين : بعدا يعلق بفرح نفسه وعلاقته الذليلة المقبلة بنيشان الذي يستغله ويحركه كما يشاء كالقرد ليكسب من وراء شهرته كمطرب الرجولة في الملاهي المختلفة ، وبعدا يتعلـــق بالناس اللاهين حول القرد ، والذين يلعب القرد بعقولهم فيلهيهم عن واقعهم الذي تتهدده أخطار المستغلين وطائرات العدو الاسرائيلي المغيرة على الجنوب اللبناني . وتمرر غادة لعبتها الفنية بذكـــاء بارع ، فالقراد يلعب قرده امام « الهورس شو » المقهى الذي يجتمع شبه المثقفين : ان دور معظمهم لا يختلف ابدا عن دور ذلك القراد .

وتستمر لقطات غادة الذكية ــ والمتجمعة للاسف في مطلع الرواية فقط ــ فشارع الموسمات في المنيبي خلف « ساحة الشهداء » : انظروا الى أي عهر انزلقت اليه الامة اللاهية عن قضيتها .

الصرخة تتردد في بهيم الليل منذرة « فرح » ايضا ، ولكن احدا لا يهتم . ان « فرح » لا يدري ان هذه الصرخة ستكون صرخة (ياسمينة) التي تذبح من اجل الشرف الكاذب بينما يلطخ الناس شرفهم كل يوم بالاستسلام للغزاة والمستغلين ، وان هذه الصـــرخة قد تكون في نهاية الرواية صرخته ، ورجال مستشفى الامـــراض العقلية يضعون في ذراعيه القميص القيد ، ليسمعها شـــاب اخر محمل بالاحـــلام ، قادم ليشق طريقه في بيـــروت المتلألئة بالاضواء . ان الصرخة تقول ان احدا ينتهك او يقتل والمدينة غافية ، لعله تاريخ الوطن او الانسان المسحوق فيه بوجه عام . كما رافق كورس النادبات رحلة فرح وياسمينة ، وكما طالعت فرح الاسماك الميتة فـــي اكياس النايلون ، وصورة القراد وهو يلعب قرده ، تأتي الصرخة في بهيـــم الليل ولا نعرف مصدرها .

ما الذي يجمع هذه الشخصيات المتناثرة ؟

أهي الصدفة ؟ أم تخطيط المؤلفة المتعمد ؟

صحيح أنهم يلتقون ، يلتقون صدفة ، او يلتقـــون بعلاقات متشـابكة . ولـكن هذا لا يهم . انها تتدخل في حياتهم اليس كما في الميلودرامات السينمائية المصرية ـ فالنهاية المأساوية تشملها وتشملهم. وعلاقة نمر السكيني بنيشان ليست مستغربة ، كما ان لقاء فـرح بياسمينة ليس منقذا . انها تؤلمهـا كي تحفزنا للتغيير ، وعـدم الاستسلام لصدفة تحـكم علاقاتنا . هم اساسي يجمع الشخصيـات الخمس المظلومة ـ والتي تعبر عن قطاع معين بأشـكال مختلفة ـ فهي عبر انسحاقها او ترديها الاخلاقي والانساني تعيش جميعا وضعا واحدا لا تدرك له حلا ، الا في (مصطفى) الامل الشاب الذي يخرج مـن دنيا الاحـلام الفلسفية الشاعرية الى دنيا النضال السياسي .

فرح يرغب القراد والقرد ، وياسمينة تتقافز عارية على يخت السكيني ، وابو مصطفى يحاول اصطياد مصباحه السحري مع السمك بلا جدوى ، عندما تخترق طائرات العدو جدار الصوت فوق بيروت . ذلك الصوت يجمع كل الشخصيات ، بل يجمع اكثر منها بـكثير في بوتقة واحدة . ان الصوت يتردد قاسيا . مفاجئا ، ليتنبههـم وينبهنا . وتتثالى ردود الفعل : القرد يهتز امام الصوت ليحمي نفسه، والجمع لاه مستسلم ببلادة ، ونمر السكيني لاشي يردد : «هربي نهدك»

وعندما تنهي غادة السمان رموزها الصغيرة ، وتمـر احداث روايتها في الثلث الثاني وافعية عادية لا تتصاعد ، تسرع لتجـذب اهتمامنا الذي كـاد ان ينشتت بايقاع سريـع متلاحـق نحو النهايـة في الثلث الاخير ، انهـا تستعيض عن الرموز بكوابيس فرح الجنونيه، وعـن الجو الذي مهدت به ببطء واتقان الرواية بنهاية ياسمينـة المأساوية على يد اخيها الذي كان يقبل ما تنفقه عليه من امـوال عشيقها ويسكت ، وعندمـا ينقطع المال يصحو لشرفه ، ناسيـا أن الشرف الاكبر هو في انقاذ حياة المجتمع من امثال السكيني ونيشان وفاضل السلموني ، وانقاذه من خطر اسرائيل على الفدائيين العرب وعلى الوطن المهدد باستمرار .

لكن الصدفة تظل تحكم شخصيات غـادة السمان اكثـر ممـا يجب ، تجمعها ، تفرقها ، تدفعها ، وتمنعها . وهنا تتسلل الكـاتبة بين ظلال هذه الصدفة لتفعل بهم ما تريد وهي مختفيه في الظل .

ان ما يهزنا هو الصدق الذي تعالج به غادة السمان واقـع قصصها وشخصياتها . نحن لا نستطيع الا أن نتفاعل معهـم ، فهم يسـكنوننا ، يلحون على عواطفنا ، ورغم مواقفهم المثالية احيـانا الا انهم يقنعوننا بحقيقتهم . ومع هذا يفاجئوننا ببعض تصرفاتهم . ابطـال غادة السمـان مستسلمون للتنين الهائل الخفي الذي ينهش كـل ما اخروه من احلام مضيئه ، اما الفقراء فتعذبهم ضمائرهم عندما يلجأون للطريق غير السوية لتحقيق شيء من الرفاه في حياتهم. ان الطريق هي الثورة ، ولـكن غادة تدرك انوضع المأساوي العاجز لجزء كبيـر من الطبقة التي يجب ان تثور في احضان الجهـل والطائفية والعشائرية والاستسلام انطبقي للهرم الاجتماعي . لـذا يستسلم ابطالها رغم جميع الاصوات المنذرة : ياسمينة رغم يقظـة احاسيسها وذكرياتها عن دمشق المقصوفة قبل عام وانفجار صـوت الطائرة الاسرائيلية التي تقصف الفدائيين والاهلين في جنوبي لبنان، رغم ذلك تقرب نهدها من شفة نمر السكيني . وفرح الذي يـرفض منطق الحظ والمصادفة ولا يؤمن باليانصيب يشتري ورقة . ومصطفى الذي يتفلسف عن الاسماك يصحو جائعا فيأكل سمكة .

ان الحلم اقوى منهم ، فهم ينجذبون وراءه كالعبيـد . لذلك نشعر دائما باطار ميتافيزيقي فلسفي يحيط بالشخصيات والمدينـة والاحداث ، دون ان يفقدها واقعيتها . ان ظلـم الاقـدار يتحـد بالظلم الاجتماعي ، ولاخلاص الا بارادة الانسان وفعله الثوري لتغيير حياته . هذه هي ميزة غادة السمان الفكرية الاساسية : الـوعي الوجودي للازمة الانسانية المعاصرة وانعكاساتها على الازمة العـربيه المعاصرة ، كافراد وكمجتمع .

عيب غادة هـو انهـا تدخلنـا في ازمة شخصياتها مباشرة دون مواربة او تمهيد ، فنشعر بتصرفاتها احيانا مفاجئة ، او مبهمـه ، او غير مبـرره . بل لعـل بعض النصحة يـكمن في ذلك لـولا ان هذه الشخصيات تختلط بشخصيـة غادة نفسها فـي مونولوجـات عدة . ان لا شعور (فرح) أعمق منه في الـواقع بـكثير ، وكذلك مشاعـر (ياسمينه) وذكرياتها ، لذا نشعر اننا امام عدة شخصيات في شخصيه واحدة .

لقد وضح هـذا الاتجـاه الى تعميـق الجـو القصصي واغنـائه بالازمنة الثلاثه ، وبامكنـة لا متناهيـة منـذ مجموعتهـا المنـازة « رحيل الأراقيء القديمة » ، التي تقتـرب بهـا من الاقصوصة (novellet) مبتعده عن تركيز القصة القصيرة ، واقتصارها على بطل واحد ، ووحدة فـي الحدث ، اذا لم تحتفظ ايضا بوحدتي الزمان والمـكان .

ان عالـم غادة السمان عالم ينقلنا من الحياة الى الافكار ، ومن الاسلوب الى المضمون . ببساطه واتقان ووضوح فكري تام . انـه عالم مبني بحسبيه خالصه وصدق مفرط ، ولـكنه عالم متماسـك في النهايه في موقف الكاتبه . غـادة هنا تطالعنا بخمس قصص قصيره ـ لو ساءت ـ جـمعتها في روايه ، وداخلت احداثها ببراعة. انها تستفيد من تقنية السينما في الانتقال السريع من شخصيه لاخرى ومن مكان لاخر . فمن قارب ابو مصطفى الصياد الـى يخت السكيني، ومن السكيني وياسمينة الى نيشان وفرح . بل ان فائـدة تداخل السينما والرواية اوصلتهـا الى حريـة مطلقـة فـي استخـدام الخطيـن المتوازيين للاحـداث : الخارجـي والنفسـي ، (وجعلت بينهما فارقا في نوع الحرف) .ان « الفلاش باك » يتراكض بسرعـة ليجمع الزمن بوحداته الثلاث في لحظة الخلق المعاشة : المـاضي اي الذكـرى ، والان اي الحـدث ، والمستقبـل اي الحلم ، كلها تتلاحم في بنيان واحد .

لقـد استطاعت غادة السمان في « بيـروت ٧٥ » ان تدخل عالم الرواية الصعب بخبرتهـا الصحفية والقصصية ، فلا تتعثـر . والطريق الان امامها سيبدو بالتاكيـد اكثر سهولة وامانـا ، فقـد استطاعت عبر تجربة الغربة والذات الانسـانية التواقـة للخلاص ان تجـد نفسها كانسانة واديبة لها دور فيما يجري حـولها في مجتمعها وعالمها في عصرنا هذا .

دمشـق

مكتبة انطوان

شارع الامير بشير ـ بيروت

تقدم اكبر مجموعة من كتب الهدايا
في مختلف اللغات العربية والافرنسية والانكليزية

موسوعات مصورة ، علوم متنوعة
ثقافة شاملة ـ حضارات الامم
مكتبة انطوان ـ شارع الامير بشير ـ بيروت